البلدة حالاً . وكذلك ينتش عمال الجمارك القادم بكل شدة ولكن يمكن تخفيف ذلك ببعض دريهمات يعطيها المسافر للعامل وتمنع الدولة ادخال الاسلحة الى هذه البلاد ومع ذلك ترى كل واحد من الالبان يحمل السلاح وهذا من الغرائب

والقسم الذي يسكنهُ الاجانب نظيف مرتب منظم خلافاً لحي الاسواق فان طرقهُ معوجه وتكثر فيهِ الاقذار كما هو الحال في اغلب المدن الشرقية

ويتيم في اشقودره اسقف البانيا الكاثوليكي وفيها كنيسة كاتدرائية كبيرة

وستنتهي المسئلة البلقانية يوماً الى نزع الاستقلال النوعي الذي تتمتع بهِ البانيا الآن ولكن الدولة التي تكون هذه البلاد نصيبها تصادف صعوبات في اخضاعها اكثر مما لاقت النمسا في اخضاع البوسنه والهرسك. ونفوذ النمسا الآن عظيم بواسطة الكنيسة ولهذا السبب قد عينت لها في اشقودره قنصلاً جنرالاً وقنصلاً ووكيل قنصل

توفيق كلداني

عروسة النيل

الفصل السادس والعشرون

كان مضجع اوربون تلك الليلة مضجع العاشق الواله يطارد فيهِ الوجدُ الكرى ويهزم الحنين الراحة فظلَّ يتقلب على مثل شوك القتاد حتى انشقَّ الفجر فنهض وارتدى ثيابهُ وركب جوادهُ وسار يطلب القسطاط ليُودِع صالحاً اخا هاشم التاجر نصف مال باولين عملاً بما اتفقوا عليهِ وكان الطباق بين المدينتين مدينة الفراعنة وعاصمة العرب على اتمهِ فبدت هذه بمظاهر النشاط والشباب وانزوت تلك وعليها امارات الضعف والانحطاط والشيخوخة حتى خيل لاوربون ان منف جثة محنطة في العدوة الواحدة والقسطاط شاب في مقتبل العمر وشرخ الشباب في العدوة الاخرى . واكبر ما رأى في وجوه العرب من سيماء النجابة والنشاط فانَّى التفت ابصر عيوناً ينبعث منها الذكاء وحدَّة الذهن ووجوهاً ارتسمت فيها البسالة والاقدام وانوفاً شماء ابى اصحابها الاَّ الانتصار على المصاعب وتذليل العقبات فسار في الشوارع المزدحمة باخلق حتى وصل الى حانوت صالح فترجل ودخل يتبعهُ نيلس خازنهُ وفيما هما هناك ابصر عبادة بين المارَّة فحيَّاهُ هذا تحية الصديق فردَّ اوربون التحية باحسن منها لكنَّ انقباضهُ من الرجل عاودهُ وخطر ببالهِ ما قالهُ عمرو. وعاد عبادة فمرَّ بهِ ثانية وثالثة فادرك اوربون انهُ لامرٍ ما يفعل ذلك لكنهُ لم يكد ينجز ما جاء لاجلهِ حتى نسي عبادة ولما قضى غرضهُ رجع الى منف وسار توًّا الى البيت فرأى

الدار غاصة بالاتباع والحشم وقيل لهُ ان البطريرك في البيت ثم اتاهُ سبك القهرمان فقال لهُ "امك تدعوك اليها" فتبع القهرمان على مهل حتى دخل عليها فحيَّا البطريرك بالتعظيم ووقف مطرقًا برأسهِ فقال البطريرك اهلاً وسهلاً بابن صديقي الحميم فقد تركتك يافعًا واراك اليوم رجلاً كامل الخلقة بهيَّ الطلعة اما وقد انهيت حديثي مع امك فاخصك بجزء من وقتي وشيء من ارشادي . فاجاب اوريون وقال هلمَّ بنا الى مكتبة ابي ولتقدمهُ فتبعهُ البطريرك حتى اذا ما صارا هناك قال اذًا انت حفيد مينا العظيم وابن جريج المقوقس الذي كان حاكم قطيعي المحبوب في منف فهات يدك

— امرك مطاع يا مولاي لكني اظن انهُ لا يحلّ للابن ان يصافح العدوّ الذي لم يستأصل الموت عدوانهُ فاهان الاب في قبرهِ واهان باهانتهِ الابن ايضًا

— لا يصعب على المسيحي ان يغفر لعدوّ خاطئ ما اقترف من الذنوب وان من دواعي السرور عندي الصفح عن فتى يزعم انهُ أهين باهانة والدهِ المتوفى فغيظك لا يؤذيني ولكنهُ دليل على حاجتك الى تلك الصفات التي يجب على المسيحي ان يتحلى بها اعني الطاعة والتقوى والتسليم فاعلم اذًا اني كبطريرك هذه الامة اطالب كل يعقوبي بالخضوع لاوامري دون تردد كأنها اوامر العلي فماذا يكون من امرنا اذا تفرقنا وسار كل واحد منا في السبيل الذي يهواهُ فلا يمرُّ بنا قرن واحد حتى تتداعى اركان ايماننا وتتفرق ايدي سبا فتعلَّم ايها الفتى المعجب بنفسهِ المدل بمقامهِ وشبابهِ الخضوع لامر الله وارشاد نائبهِ واصغِ الى ما اقولهُ لك ترَ وجه الخطإ في سوء ظنك بي فانت تدعوني عدوّ ابيك اخطأت فقد كنت احبهُ محبة الشقيق لشقيقهِ وكنت اودّ لواستطيع ان امطر على ضريحهِ سحائب الرحمة والرضوان اللذين تسحبهما الكنيسة وحدها

— لكنك حرمت صديقك الحميم هذا الذي تدعي حبهُ من نعمة تمنحها الكنيسة لاشقى اللصوص والقتلة اذا تابوا وحلَّهم الكاهن من ذنوبهم

— وابوك حلَّهُ الكاهن — نعم انني حظرت على رجال الدين الاحتفال بدفنهِ أتعلم علة ذلك

— اردتَ ان توصمهُ امام الملإ بوصمة تسليم البلاد الى الغزاة

— اراك تحسن قراءة الافكار فهب ان غرضي كان تشهير ابيك في عيون اهل منف فاريهم العقاب الذي يحلّ بمن يسلّم بلادهُ الى العدوّ أفلا يصحّ ان اكون مصيبًا في ما فعلت وان كنت مصيبًا فهل ألام على ما فعلت

— اتزعم انَّ ابي دعا الغزاة الى مصر

— كلاَّ فقد اغار العرب عليها من تلقاء انفسهم

— الم تنبأ ايام كنت في المنفى الذي نفاك اليهِ الروم ان العرب سيتكلون بالروم ويجلونهم عن هذه الديار

— نعم فقد كان الامر كذلك بحسب ما اوحى بهِ الله اليَّ على انهُ كشف لي الستار عن امور اخرى ايام محنتي فاحذر يا فتى لئلاَّ تتمّ النبوة باسرها فيسقط بيت مينا ويمحى اثرهُ فيصبح كالعصافة التي تحملها الريح وتذرّيها في انحاء الارض

— ان نبوتك اثرت في ابي تأثيرًا عميقًا فلما غُلب الروم وافتيتَ انهم كفرة كانت فتواك اكبر معزٍّ لهُ واقوى سند يستند اليهِ ويعلم الله انهُ كان يكرههم كرهًا شديدًا بعد ان قتلوا ابنيهِ ولكنك لو قرأت كتابهُ الذي بعثهُ الى الامبراطور يبرئُ فيهِ نفسهُ من تهمة الخيانة لا تضح لك حرج موقفهِ وشدة حكمتهِ فقد قال فيهِ

" ان هؤلاء العرب على قلتهم اقوى منَّا على كثرتنا وواحدهم بالف تراهم يطلبون الموت ويفضلونهُ على البقاء ويخوضون غمار القتال كمن لا وطن لهُ ولا اهل يعود اليهم ويعدون من يسقط منهم قتيلاً في حومة الوغى شهيدًا مصيرهُ الجنة وهم ابعد الناس عن حب زخارف الدنيا ونعيمها اما نحن فنكرهُ الموت ونحبّ الحياة فلن نقوى عليهم "

— وما الذي تستخلصهُ من هذه الرسالة

— ان ابي لم يسلّم البلاد الاَّ مضطرًّا

— لكنهُ لم يكتفِ بذلك بل انحاز الى العرب فصادقهم واحبهم وفي ذلك اثم كبير ألا ترى انهُ في كتابهِ هذا مدح شدة تعبدهم وتدينهم

— ان ابي كان منطويًا على حبّ العدل مطبوعًا على الاستقامة لا يراعي فيها خليلاً ولا يفرق بين الصديق والعدوّ

— قلت لك انهُ مال الى العدو فلمَّا آنس منهُ شعبنا هذا الميل اخذوا يقلدونهُ فانزاح الوف منهم عن معتقدنا واعتنقوا ايمان العرب بعد ان رأوا واليهم الحكيم يمالئهم ويعدّهم خير اصدقائهِ فرأيت ان اتغلَّب على حبي لهُ وصداقتي لبيتهِ حفظًا لركن الدين ان يتهدّم فخطرت على رجال الدين ان يكرموهُ الاكرام الذي يستحقهُ فاخفض من غيظك واقبض على اليد التي يقدمها اليك راعيك . فصدع اوريون بالامر كارهًا وحينئذٍ غيَّر الحبر مجرى الكلام فاخذا يبحثان في مواضيع شتَّى حتى جرَّها الحديث الى الجواهر فسألهُ البطريرك عمَّا اتضح من امر الزمردة فاجابهُ اوريون ان التحقيق لم يكشف لهم الحقيقة الى ان قال ولم يقصد ابي ان تكون الزمردة في جملة ما اهداهُ الى الكنيسة وكان يتكلم وهو يخشى ان امهُ وسوسنة اطلعتا البطريرك على ما جرى

بشأنها امَّا هذا فاصرّ على طلبهِ وامرهُ بتجديد البحث زاعمًا انها ملك الكنيسة فقال واذا لم تأتِ بها اتخذت جميع الوسائل لحصول عليها فوعدهُ اوريون خيرًا وحينئذٍ وقف البطريرك وقال والغيظ بادٍ في وجههِ

— لقد عجمتك يا ابن المقوقس وبلوت سرَّك فعرفت انهُ ينقصك التواضع وعلمت انك لا تزال تجهل سلطة الكنيسة ونفوذها وقد ادركت ممَّا فاهت بهِ والدتك انك على شفا جرف هارٍ فقد حدثتك نفسك بالتزوج بابنة ملكية فعللت نفسك بالتمتع بملذات هذه الدنيا الفانية والتلهي بغرورها وكأن ذلك لم يشبع مطامعك فذهبت الى الفسطاط وعرضت ان تتطوع في خدمة الغزاة فاعلم اذًا انني لا آذن لاغنى قومي وارفعهم مقامًا واعرضهم جاهًا ان يضلَّ الوف اليعاقبة بسيرتهِ فاطعني او ياتيك زمان تذرف فيهِ الدمع دمًا ثم مكث ساعة وقال وقد اتيتك اليوم آمرك بقطع الربط التي تربطك باعداء امتك ودينك فانزع من قلبك حب الفتاة الملكية فان حبها يطوّح بك في مهاوي الهلاك

فثارت عزة النفس في اوريون ولم يطق السكوت فصاح قائلاً

— لن اقلع عن حبها فافعل ما تشاء فانا ابن الكنيسة وسابق بنعمة الله في حظيرتها كما كان آبائي من قبلي لكني لا اهجر الفتاة التي احبتني وكانت رسول السلام اليَّ فارشدتني الى الواجب الصحيح فاعلم انني لست بناسٍ عظم سلطتك ونفوذك فمرني اطعك على ان لا تبغي المستحيل فلست بناقضٍ عهدي معها لابرهن على اخلاصي لك اما العرب .... فقاطعهُ البطريرك وقال

— حسبك ما قلت فهانذا مسافر الى الصعيد وعليك ان تقرَّ على رأيي ما قبل عودي منهُ فتختار لنفسك ما يحلو وانت في سعة من الوقت فزواجك بالملكية المرطوقية على رفعة مقامك ممَّا لا يطاق امَّا صداقتك للعرب فسنرى فيها في فرصة اخرى فاذا اطعتني في امر زواجك — ولك ان تختار اية فتاة يعقوبية بعدها — عاملتك باللين والرفق وعضدتك ومنحتك بركة الكنيسة بدل لعنتها

— لا استطيع ذلك ولا افعلهُ ولن افعلهُ

— اذًا في استطاعتي اكراهك عليهِ وحينئذٍ تحسّ بثقل وطأتي

— لا ريب عندي في قدرتك ولكن اذا احرجتني اضطررت ان اطلب السعادة التي تتعطش اليها نفسي في عدوة النيل الشرقية

— لا اراك تجسر على ذلك ثم خرج من الغرفة وهو يتميز غيظًا

الفصل السابع والعشرون

فجلس اوريون يفكر في ما دار بينهما واحسَّ بان البطريرك سبر غورهُ وانتزع سرَّهُ فاشتدَّ بهِ الحنق والغيظ وقال في نفسهِ لقد احسنت امي في كتمانها عنهُ خبر لعنة ابي لي على فراش الموت ولكن من يضمن لي انها لا تبوح بهِ اذا عاد اليها واستطلعها طلعها. وفيما هو كذلك فطن الى ان البطريرك خرج وحدهُ فشق عليهِ ذلك لعلمهِ انهُ خرَق لي حقوق الضيافة والآداب فاسرع الى الدار واذا بامهِ هناك والبطريرك يودعها فدنا منهُ اوريون مودعًا فتلقاهُ باسمًا كانهما صديقان حميمان وفيما هما سائران نحو الباب رأى البطريرك تمثالين من صنع اليونان يمثلان العدل والحق وفي يد العدل سَيف وفي يد الحق مرآة ينظر فيها فوقف وقال

— ارى اباك اغضى عن اشارتي برفع هذين التمثالين فليس بيت المسيحي مكانهما لاسيما بيتًا كهذا تقصدهُ العامَّة من اطراف البلاد اما نحن فندرك الغرض المقصود منهما واما العامة فلا وقد يؤولون ذلك الغرض على خلاف المطلوب واودُّ ان لا اراهما في هذا المكان بعد عودي اليهِ ولما بلغا الدار السفلى لثم اوريون يدهُ وجثا الحشم والخدم فركب مركبة سوسنة وعاد اوريون الى امهِ وهو يحسبها معياة بعد مقابلتها للبطريرك فاذا هي على خلاف ذلك فداخلهُ العجب واخذ يسائل نفسهُ عما حدث فدعتهُ الى مرافقتها الى الكنيسة فلبى الدعوة وركبا مركبتها وفي الطريق طفقت تكلمهُ في امر زواجهِ بباولين قائلة اني اسمع صوتًا في قلبي يحدثني بخراب بيت مينا اذا اختلط دمنا بدم الملكيين وقد زادني حديثي مع البطريرك ايقانًا بصدق هذا الهاجس فتوسل اليَّ البطريرك ان اقنعك بهجر ابنة توما فعلمت ان الصوت صوت الله . فاخذ اوريون يبدّد اوهامها وحاول ان يسكن مخاوفها وينزع اضطرابها فذكَّرها بوعدها لابيهِ وهو في النزع وما قاستهُ باولين من جرَّاء ترددهِ وما زال كذلك حتى بلغا الكنيسة فلبث فيها نحو ساعتين وفيما هما عائدان الى البيت استولى التعب على نفوس فاستندت رأسها الى كتف ابنها وتامت فلما وصلا الى المنزل دعا الخدم فحملوها الى غرفتها وهي نائمة ولما فرغوا فارقها وذهب توًّا الى غالائيل الصيرفي فابتاع منهُ الماسة غالية وكلفهُ ان يرسلها الى اخيهِ في القسطنطينية وذاك يدفعها الى نسيبة يوستينوس ثم جلس الى مكتبتهِ فخطَّ كتابًا اليها يتوسل فيهِ ان تعيد اليهِ الزمردة مستعيضة منها بالالماسة وبعد ان ختم الكتاب عاد الى البيت فتناول الغداء وسأل عن ماري فقيل لهُ ان الحمى عاودتها فاسرع الى غرفتها وقرع الباب وانتظر بضع دقائق قبل ان سمع ماري تدعوهُ الى الدخول فدخل ورآها مضطجعة في سريرها بقرب النافذة وعلى مائدة امامها باقتان من الازهار احداهما ذابلة والثانية نضرة فراعهُ ما رآهُ من شحوب لون الفتاة

وضعفها وتنبه الى احمرار وجنتيها فعلم انها الحمى فهشت لهُ ماري واومأت اليهِ بالجلوس فجلس بجانبها وامسك يدها وقال ازارتك جدتك اليوم فهزت الفتاة رأسها وبدا الحزن في وجهها فسألها قائلاً "ومن اتاك بهذه الازهار" فاضطربت ولم تجب ولم يخفَ عليهِ علة اضطرابها فندم على سؤالهِ ثم اجال نظرهُ في الغرفة فرأى مروحة من ريش النعام فقال وما هذه فصبغ الاحمرار وجهها ووضعت اصبعها على شفتيها علامة السكوت فقال اذاً كاترينا هنا وهذه مروحتها فاين هي الآن فاشارت الى الغرفة الملاصقة فهمس اليها وقال وما غرضها من المجيء فقالت

— اتت سرًّا في قاربها وكانت قد سبقت فارسلت اتوبيس يسألني عما اذا كنت اسمح لها بالمجيء فاجبت بالايجاب ثم اخذت تبكي فقال اوريون

— علامَ البكاء فقد اتيتك ببشارة تفرحكِ . رأيت باولين امس فكلفتني ان احمل سلامها اليك وهي تدعوك الى الذهاب الى بيتها والاقامة فيهِ ريثما تبرئين فاكتمي السرّ حتى اتمكن من اقناع جدتك بوجوب نقلكِ وقد اطلعتكِ عليهِ كي تسرّي فتنامي الليل فلما سمعت كلامهُ غلب السرور عليها حتى ابكاها وحينئذٍ سمعا المهذبة تخاطب شخصاً في الغرفة الاخرى وتقول علامَ هذا التمنع فماري تسرّ برؤيتك ومن لا يفرح لرؤية اصدقائهِ ثم دفعت كاترينا الى حيث كان اوريون وماري وتبعتها فلما ابصرت اوريون ارتاعت وجمدت في مكانها والتقت عين اوريون بعين كاترينا وساد السكون برهة فاراد اوريون ان يخفف بعض جزعها فسألها عن كلبها فقالت ربطتهُ في دار الطير لان البطريرك لا يطيق الكلاب

— وقد رأيتهُ لا يطيق بعض الناس ايضاً

— ذلك اذا كانوا لا يطاقون . واستمر الحديث بينهما على هذا النمط بين اخذ ورد حتى قاربت الشمس المغيب فهبت كاترينا من مكانها مذعورة وقالت

— لقد فات الوقت واخشى ان ابطيء في العودة وقد تركت قاربي في مرفإكم افلا تزال الخزينة مفتوحة فانسلّ منها ولا يراني احد من اهل القصر

— لكنّ اليوم عيد والخزينة مقفلة . فشق هذا الخبر على كاترينا وبدا الجزع في وجهها واخذت تضرب اخماساً لاسداس اما اوريون فكان يفكر في وسيلة لقطع زياراتها لماري لعلمهِ ان هذه الزيارات تعود على ابنة اخيهِ بالضرر فلما شاهد اضطرابها قال لها لا تخشي شرًّا فمفتاح الخزينة معي وانا ارافقك الى المرفإ فنهض الاثنان وسارا معاً فاستطرقا الى الخزينة ومنها الى الباب المشرف على النيل فاخرج اوريون المفتاح من جيبهِ وهمّ بفتحهِ لكنهُ تردّد ثم دار الى كاترينا وقال

— ما الذي يدفعك الى زيارة ماري . فاستولى عليها الخوف واثرت فيها سكينة المكان فترددت في الجواب خشية ان تعترف بالدافع الحقيقي فانها جاءت لتطلع ماري على ما تمّ بين اوريون وباولين ظنًّا منها ان الفتاة تنقل الخبر الى جدتها فتعود هذه الى اعتراض ابنها كالاول فلما سألها اوريون سكتت برهة ثم قالت شوقي الى ماري فقال قد يكون الامر كذلك واغا يجدر بكِ ان لا تستسلمي الى شوقك فقد اعلنت امك كرهها لنا على رؤوس الاشهاد ولست اشاء ان يقال اننا نرحب بكِ في بيتنا كي نعصي اوامرها ونواهيها فاذا رأيت ماري فلا تحدثيها بما يهيجها فانها سريعة الانفعال ضعيفة المزاج شديدة الذكاء وهي في حاجة الى الراحة لا سيما ساعة المرض ولا يخفى عليك ان البطريرك عدوٌّ لي ولاهل بيتي وقد سمعتِ ما دار بيننا اليوم من الحديث فوقفت منهُ على اشياء تهمك معرفتها طبعًا وقد تستخدمينها لنيل غاياتك. فامتقعت كاترينا وادركت انهُ مصيب في كلامهِ فصارت تتقلب بين الحيرة والغيظ والخوف ثم قالت

— ليس لهذا الكلام من داعٍ فلن ادخل بيتكم ابدًا ولو عرفتُ ....

— انك ستلقينني لما جئتِ اليوم

— نعم ولا انكر انني سمعت ما دار بينكما من الحديث كما قلت واي امريء لا يشتاق الى الوقوف على ما يدور بين العظماء وكلاكما اعظم مَن عرفت بعد ابيك وهذا خُلقنا نحن النساء ورثناهُ عن امنا حوّاء حتى ان التطفل يدفعنا الى اعمال غريبة امَّا انا فسيئة البخت في ارتكاب الذنوب فقد اذنبت مرة بفضل اغرائك وجهلي فهدم ذنبي سعادتي ثم اذنبت اليوم ولم انجُ في الحالين

— فهمت تعريضك وعتبك عليَّ في مكانهِ فاحمدي الله على انفصالنا فنحن لم نخلق لنقضي الحياة معًا ولو فعلنا لجلبنا الشقاء على نفسينا طول حياتنا واعلمي انني لم انجُ من تبعة ذنبي كما تتوهمين بل اصبت اعظم الجزاء واشدَّ العقوبة

— قد يكون ذلك كما تقول ولكن هيئتك لا تؤيد دعواك فانك لم تلبث سوى بضعة ايام حتى عدت الى تلك الفتاة فاقنعتها بحبك لها وعادت المياه الى مجاريها

— حسبك ما قلتِ ثم فتح الباب فاعترضتهُ وقالت

— لا تظن انني اكترث لوقائع حبك او يهمني امر باولين لكنني لا اخالك تنكر انك مديون لي ببعض الشيء فهل لك ان توفي دينك فتجيبني على بضع اسئلة اطرحها عليك

— حبًّا وكرامة فاسأليني اجبك

— هل عرف غيرك انني استرقت السمع — كلاَّ

— وهل تعدني انك لا تبوح بالسر

— نعم فهاتي السؤال الآخر. فترددت برهة ثم قالت قد تخالني معتوهة ولكني سأسألك ولو كلفني ذلك ما لا اطيق احتماله فاقسم باعزّ الاشياء لديك انك تجيبني صدقاً وتقول حقاً

— ولكن قد يحدث ان يشمل سؤالك غيرنا فلا استطيع اجابتك

— كلاّ فالسؤال وجوابهُ خاصّان بي

— اذاً قبلت فاسألي

— لا افعل ما لم تفتح الباب حتى اذا فرغت من كلامي تمكنت من الفرار دون ان تعيقني فناولني كرسيًّا فلما فعل جلست وقالت ان عليك رقباء من البطريرك يتجسسون اعمالك ويتنسمون اخبارك وقد درى بزيارتك عمرًا ليلة سرت اليهِ في الفسطاط ووقف على ما دار بينكما ولما اجتمع بعمرو مؤخرًا انبأهُ هذا بما اقرّ عليهِ من اقفال نصف اديرة الرهبان والراهبات في هذه البلاد وذلك لأنّ عمرًا لم ينتهُ ان هؤلاء يقضون اوقاتهم في ممارسة الصناعات المختلفة ولمّا كانوا لا ينفقون على طعامهم ومسكنهم استطاعوا ان يزاحموا العمال من العامة فيبيعوا سلعهم باثمان لا يتسنى لاولئك مناظرتهم فيها فرأى ان ذلك يعود بالضرر البليغ على الاهلين والصنّاع منهم لاسيما صنّاع المسلمين فاصرّ على اقفال الاديرة لكنهُ لقي من البطريرك مقاومة عنيفة ولم يسلّم هذا بمطلب ذاك حتى وعدهُ بأن يملكهُ دير راهبات الروم في منف فيضع يدهُ عليهِ ويستولي على جميع عقاراتهِ ومنقولاتهِ فعند ذلك اتفقا واقرّا على اقفال الدير بعد ثلاثة ايام وامر البطريرك بنفي الرئيسة الى احد اديرة ايثوبيا وبنقل سائر الراهبات وتوزيعهنّ على الاديرة الاخرى

— اهذا مجمل ما عندكِ — نعم

— ولكنكِ ذهلتِ عن سؤالك فانا مستعد لاجابتكِ

— حسبتك لا تفعلين وقد كنت اخالك تعاف رؤيتي بعد الذي جرى فاذا الامور على خلاف ما ظننت فقد اسأت اليّ ولكني لست حاقدة عليك ولست من اللواتي تعدهن الدهر والسنون فانا بحمد الله غنية جميلة صغيرة السنّ والمستقبل امامي متسع الارجاء ولعلّ خطيبي الثاني يكون اوفى عهدًا من الاول فلا ينبذني كما فعل هذا

— اودّ لو كان في طاقتي التكفير عن ذنبي

— لا تحتاج امًّا وقد هان لي ان اطرح سؤالي عليك فاجبني جوابًا صريحًا كما اقسمت ان تفعل . أتذكر ليلة كنّا معًا في البستان فجلسنا في ظلّ تلك الجميزة ساعة اقسمت انك تحبني

فوق كل شيء ودعوتني منية فؤادك وزهرة عمرك أنقلتَ ما قلت حينئذٍ مخلصاً وكان حبك صادراً عن فؤادك وكنت تحبني كما تحبّ تلك التي لا اسميها اليوم . ولما قالت هذا صبغ الاحمرار وجهها وبرقت عيناها وبدا حبها لهُ فلم تستطع اخفاءهُ وكادت تسمع باذنها خفقان قلبها واحسّ اوريون بما كان يخامرها فتمنى لو ان في استطاعتهِ ان يعود الى حبها وكاد يجيبها جواباً يخفف بعض جواها لكنهُ تشدد وقال

— ان حسن طلعتكِ اليوم يوازيهِ جمالك في تلك الساعة ولست انكر ميلي اليكِ حينئذٍ على انّ الحبّ الصحيح الذي يحلّ في قلب المرء فلا يفارقهُ طول حياتهِ لا يأتي مرتين فتناسي ما حدث وعدّلي سؤالك بعض التعديل واطرحيهِ ثانية عليّ اجبك عنهُ . . . . لكنهُ لم يكد يتمّ كلامهُ حتى مرقت امامهُ مروق السهم واسرعت الى المرفإ

الفصل الثامن والعشرون

فوقف اوريون ينظر اليها وقد غلب عليهِ الحزن وتولتهُ الشفقة عليها منهُ بما تقاسيهِ ثم اخذ يفكّر في ما انبأتهُ بهِ ورأى ثمت فرصة لابداء بسالتهِ وشهامتهِ فعزم على انقاذ الراهبات والفرار بهنّ وزاد في جرأتهِ واقدامهِ خطر المشروع وما يحول دون انفاذهِ من المشقات فاقفل الباب وعاد الى البيت فلما دخل غرفة ماري اذا بالطبيب هناك وسمع الفتاة تقول لهُ اراك كئيباً اليوم وعلى وجهك صفرة الموت فاسمع يا عماهُ ان فيلبس يعالجني واراهُ احوج مني الى العلاج فاذا مرضت يا فيلبس سقيتك من هذا الدواء الذي بعثتهُ اليّ فتعلم شدة مرارتهِ . وحينئذٍ دار الطبيب الى اوريون فتبادلا التحية وقال اوريون لي كلام معك فتردد الطبيب عن جوابهِ لكنهُ ادرك ان ماري موضوع الكلام فقال في نفسهِ لا بدّ من القيام بالواجب قبل كل شيء فلما خلا باوريون اطلعهُ هذا على ما ينويهِ من نقل ماري الى بيت روفينس فامتاء فيلبس وحسبها حيلة من اوريون يريد بها اغتنام فرصة وجود البنت هناك للتردد على حبيبتهِ وفطن اوريون الى ما دار في خلدهِ فقال

— ان ما تفكر بهِ ابعد الاشياء عن قصدي فلست اروم سوى خير ماري فقال فيلبس

— ان الموت يحاولني في خدمتها ولن تجد في منف خيراً من باولين للعناية بها لكني اخشى ان يتخذ نقلها ذريعة لادراك غاية اخرى فاذا اصاب حدسي . . . .

— اخطأت في تهمتك فلست ابغي سوى انقاذ ابنة اخي وفضلاً عن ذلك فبيت روفينس سيكون مفتوحاً لك كل يوم فاذا آنست ما يؤيد ظنك حق لك اتهامي ولا اكتمك اني سانفصل عن منف قريباً فقد دسّ بعضهم دسيسة للايقاع بقوم برّة فعزمت على ردّ كيدهم

في نحرهم ولو هلكت وستعلم انت وغيرك ان في استطاعتي الاقدام على عمل الخير والابتعاد عما يشين المرء وليس من العدل تضحية هذه الفتاة على مذبح مناظرتنا في حب باولين

— اصبتَ ورأيي كرأيك فعم مساءً فاوقفهُ اوريون وقال لا تأخذك الحدة ولا تنقم عليَّ فباولين لم تنشِ سرَّك ولكنني اكتشفتهُ بنفسي ليلة رأيتك عندها نحو نصف الليل فاكلتني الغيرة اذ علمت ان لي مناظرًا في حبها فافرغ غيظك عليَّ وقل فيَّ ما تشاء بشرط ان تنقذ ماري . فوقع هذا الكلام في نفس فيليس احسن وقع وادرك ان خصمهُ ممَّن تثمر الصنيعة فيهِ فزال غيظهُ وعاودهُ الحنان فوعد اوريون بانهُ يبذل جهدهُ في اقناع امهِ لتاذن بنقل باولين ثم انصرف في سبيلهِ فاسرع اوريون الى بيت روفينس وطلب اليهِ ان يقبل ماري في بيتهِ ثم مال الى باولين فانبأها بما تمَّ الى ان قال وليتكِ رأيتها ساعة تلقت الخبر فقد كادت تطير فرحًا ولما فرغ دعا روفينس فاخذلي بهِ واطلعهُ على ما بلغهُ من عزم البطريرك على اقفال الدير وتشتيت الراهبات في انحاء البلاد وقال كثيرًا ما اهتمَّ ابي بالدفاع عن هذا الدير ومن فيهِ وارى من الواجب عليَّ انقاذه خطواتهِ فاسعف الراهبات وانقذهنَّ . فلما سمع روفينس كلامهُ صفق صفقة الاوَّاه واخذ يندب سوء حظ ملتهِ . فطفق اوريون يعزّيهِ وقال انما اتيتك للمشورة في ما يجب علينا اتخاذهُ من الوسائل التي تؤدي الى الغاية المطلوبة

— انا اتبع لك من ظلك وتراني مستعدًّا لبذل حياتي في الدفاع عنهنَّ فهل وضعت خطة تجري عليها

— نعم فبعد غدٍ في مثل هذه الساعة

— وعلامَ لا يكون غدًا

— ان عملاً كهذا يستدعي استعدادًا كبيرًا لا يتمُّ في اثنتي عشرة ساعة فمتى حانت الساعة المعينة آتي بسفينة فترسو في مرفإ الدير وفي العتمة اخذ الراهبات الى دمياط وسابعث رسولاً الى احد انسبائي في تلك المدينة فيستأجر سفينة تذهب بهنَّ الى حيث تريد الرئيسة

— احسنت فيالك من شهم كريم النفس فقد سفك الملكيون دم اخويك وهدَّوا ركن ايك وانت اليوم تقابل عداءهم بالمعروف على اني لا ارى بدًّا من تحذيرك العواقب فالشيخ يراها قبل الفتى فاذا درى البطريرك ان لك يدًا في انقاذهنَّ لم يهنأ لهُ عيش حتى يوقع بك

— لقد نظرت في ذلك وأعلم انني مخاطر بحياتي ولن يعيقني خوف البطريرك عن القيام بالواجب فسر الى الرئيسة واطلعها على ما دار بيننا قال ذلك وعاد الى حيث كانت السيدات فجلس يحدثهن حتى عاد روفين فالقى عصاهُ والتفت الى زوجتهِ فقال

— تشددي واتكلي على الله فقد عزمت على القيام بعمل كبير فامتقعت المرأة وتعلقت به وتوسلت اليه ان يفصح عن مراده. قالت ذلك وهي عالمة انهُ انما يريد التغرُّب والسفر وان غايتهُ من ذلك خدمة الغير جرياً على عادته. فجلس واطلعهنَّ على حقيقة الامر وانبأهن بما عزم عليه من مرافقتهنَّ في فرارهنَّ فحزنت النساء وبكينَ لعلمهنَّ بشدة الخطر المحيق بالراهبات فقال روفينس وقد استحسنت الرئيسة الخطة كما رسمناها ونفعتها فارتأت ان تتخلف راهبة واثنتان من الاخوات في الدير ليقمن على العناية بالمرضى ويقرعن الاجراس واقترحت ان تساعدهنَّ في هذا العمل المبرور هيلانة وباولين

الفصل التاسع والعشرون

خرج فيلبس من بيت المقوقس وسار يعدو في الشوارع لا يلوي على احدحتى بلغ بيتهُ فالفى ابرلون يكتب كعادته فحياهُ وجلس امامهُ فالتفت اليه هذا وقال ارى التعاسة منقوشة على جبينك وكأنك الكلب يلحس اليد التي لطمتهُ فسكت فيلبس واطرق ساعة ثم اخبر ابرلون بجميع ما دار بينهُ وبين اوريون الى ان قال ووجه الغرابة انني أكاد احبُّ هذا النتن مع مناظرته لي وقد استحسنت ما اقترحهُ من نقل ابنة اخيه الى بيت روفينس فان جدتها تكاد تقتلها على اني لا اعالجها مدة اقامتها في ذلك البيت وارى باولين كل يوم تغتر النصال في قلبي

اذا عالجتها كانت النتيجة عكس ما تحسب فانك تعتاد رؤية باولين كما هي الآن اعني فتاة جميلة مخطوبة لرجل آخر وعندي ان تثابر على مداواة هذه الفتاة فاني احبها رغماً عن كرهي لانتسابها واقلع عن السفر وانا الكفيل لك بالشفاء من علتك . فاشار فيلبس بالقبول

— فقال ابرلون هيَّا بنا اذاً نترجم بعض الفصول ثم جلس الاثنان يكتبان وابرلون يقول في نفسه اذا داوى الفتاة فان يغادر منف وفي خلال ذلك احفر حفرة لابنة توما تغيبها

وقضى اوريون صباح اليوم التالي في اعداد ما يلزم لفرار الراهبات فارسل الى دمياط من يستأجر سفينة تقلع بهنَّ ساعة يصلنها ثم اسرع الى المرفإ فاستأجر مركباً من مراكب النيل لينقلهنَّ الى البحر فتوفق الى استخدام نوتي مشهور بيسالته وخبرته وبعد ذلك عاد الى البيت فاختلى بفيلبس خازنه نحو ساعة قضياها في كتابة وصيته احتياطاً لما قد يحدث من المكروه وبعد ان تمَّ الخازن كتابة ما املاهُ عليه ختما الورقة بخاتميهما وامرهُ اوريون بحفظها اربعة اسابيع فاذا لم يعد فيها فتحها واعلن ما فيها على رؤوس الاشهاد ثم يقسم تركتهُ بين الورثة بحسب نص الوصية . ولما فرغا صعد اوريون الى غرفته فلقيتهُ المهذبة واخبرتهُ ان السيدة نفورس اذنت لها ولماري بمغادرة البيت والسكن في غيره ريثما تشفى الفتاة وذلك عملاً باشارة فيلبس فشكرها

وانبأها بعزمهِ على السفر وطلب اليها ان تبذل جهدها في العناية بابنة اخيهِ مدة غيابهِ ووعدها خيرًا قائلاً لست ممن يكافئون خدمات الناس بالكلام فتمنت لهُ سفرًا سعيدًا وعودًا حميدًا غير عالمة وجهتهُ . وذهب يطلب امهُ في غرفتها فتلقتهُ بالترحاب فقال يا أُمَّاهُ سأُسافر غدًا في مهمة الى الوجه البحري وقد اغيب نحو شهر فلا يقلقك غيابي فقالت ليتك تذهب الى الصعيد فتزور امرأة اخيك في ديرها فقد اتاني امس كتاب منها فحاولت قراءتهُ وجاء في الطبيب يخاطبني في شأن ماري فلم يتسنَّ لي اتمامهُ. ثم دفعت الكتاب اليهِ فتناولهُ وفضهُ فاذا بهِ مجموعة تهم وجَّهتها الكاتبة الى ابيهِ وكلها يشفُّ عن تعصب وسوء نية الى ان تقول "هذا وانا بحمد الله وعونهِ مستريحة من عناء هذا العالم فقد هجرت افراحهُ واتراحهُ وجردت نفسي عن ملذاتهِ نعم انَّ قلبي يشتاق الى ماري واودّ لو تقيم معي بعد ان اصبحتُ رئيسة هذا الدير ولكني اخشى ان يضعف قربها تقواي فيحسن بكم ان تربوها في احد الاديرة القريبة من منف" فانتفض اوريون وقالت امهُ

— لعلَّ ذلك امر الله ومشيئتهُ. فقال امَّا الآن فافهمُ من هذا وذاك شفاؤها من الحمَّى ثم ننظر في مستقبلها فلتذهب الآن حيث يريد الطبيب لعلَّ تبديل الهواء يفيدها

وفي ذلك النهار نقلوا ماري الى بيت روفينس فلما رأت باولين انطرحت عليها وقبلتها وهي تبكي فرحًا بلقائها ثم اخذت تشرح لها ما اصابها مدة مرضها وقلبها الطاهر يفيض حبًّا ودعة فاكبَّت باولين عليها تقبلها وتمسح دموعها وتعزيها وفيما هما كذلك سمعت صوت اوريون فعلمت انهُ بانتظارها فارادت النزول اليهِ فشقَّ عليها ان تدفع الفتاة عنها وهي على تلك الحال فتربصت مكانها حتى خفَّ اضطرابها فاسرعت الى اسفل وسألت عن اوريون فقيل لها انهُ ذهب وترك لها رسالة فاخذتها وفتحتها ولما قرأتها صرخت صرخة النادم وتمنت لو اطاعت قلبها فقابلتهُ ولم ترجعهُ خائبًا بعد ان قضى يومهُ في استيفاء المعدَّات لانقاذ صديقاتها

الفصل الثلاثون

ورأى اوريون من اللياقة ان يستأذن عمرًا في السفر فركب جوادهُ وسار الى الفسطاط وكان في الطريق يفكر في باولين فقال في نفسهِ لو كان حبها لي كما تدَّعي لتخلَّت عن كل شيء واتت لمقابلتي وهي تعلم انني مفارقها غدًا وذاهب في سفر قد لا اعود منهُ

ولمَّا دخل على عمرو واستقرَّ بهِ المقام طفق يحدثهُ عمَّا آل اليهِ امر الخلاف بينهُ وبين البطريرك فنهض عمرو من مكانهِ وقال لم يعد هنالك ما يمنعك عن اعتناق الاسلام فاذا فعلت وليتك عملَ ابيك رغمًا عن حداثة سنك ويشق عليَّ السفر من هذه البلاد وليس في منف عامل

من اهلها . فلما سمع اوريون هذا الكلام رأى سبل المجد والعلاء منفتحة امامهُ وخال انهُ قبض على ناصية العز لكنهُ عاد فتذكر وعدهُ لابيهِ ولباولين فتناول يد عمرو وقبَّلها قائلاً لا يغضب مولاي اذا اصررت على التمسك بديني ودين آبائي واجدادي فقد قطعت عهداً ان لا اجحدهُ . فسكت عمرو ثم اطلعهُ اوريون على ما ينويهِ من السفر وقال اتيتك مستاذناً ومودعاً فبدا الكدر في وجه عمرو وقال

— ليتك تبقى فان لديَّ عملاً جزيل النفع يعود بالفائدة والخير على اهل هذه البلاد وقد اتاني كتاب عن الخليفة يشكو قلة الخراج ويقول انهُ لم يولِّني مصر ليجعلها طعمة لي ويشهد الله انني لم آخذ لنفسي ديناراً واحداً من الخراج وعندي مئة وخمسون الفاً من الفعلة يعملون في اصلاح الترع والمجاري التي اتلفها الروم فانا ازرع ليحصد الخلف وعليهِ فقد عقدت النية على العودة الى المدينة لا بريءُ نفسي ولاستأذن الخليفة في اتمام هذه الاعمال على الوجه الذي تقتضيهِ مصلحتنا ومصلحة البلاد وقد سمعتك تفاخر بحب وطنك فهلاَّ تزال على حبك

— نعم ولن ازال كذلك

— اذاً ففي طاقتك ان تخدم بلادك خدمة جليلة وليس ما انتدبك اليهِ بالامر السهل فقد رأيت ان احوِّر نقسيم البلاد وان اعهد اليك بذلك فتستعين على القيام بهِ بمعرفتك البلد واهلهُ مستنداً الى ما في خزائنك من الصكوك والمحفوظات واذا تبين لك ان في النظام المتبع عيباً يستحيل اصلاحهُ فاقلبهُ ظهراً لبطن ووجِّه همك الى تعديل الضرائب في الاقاليم المختلفة فان الاجحاف فيها يبدو لنا كل يوم واعلم ان غيرك يحاول نفس الامر والفوز لمن يضع الخطة المثلى فاذا صدق ظني فيك فانت ابن بجدتها فلامرٍ ما تريد الانفصال عن منف

— ان ما يدفعني الى ذلك يا مولاي عمل لا ربح لي فيهِ ولا فائدة لي منهُ ولكنهُ وعد صدر مني ولولاهُ لاطعت اشارتك من ساعتي فان عهدك اليَّ يحلّ هذه المعضلة اكبر ثناء عليَّ فاذا اذنت شرعت في العمل يوم اعود

ليكن كذلك فابذل جهدك فخلبة السباق متسعة واحذر الاثنين البطريرك وعبادة فليس عندي من يقوم مقام عبادة سوى القاضي عثمان وهو ليس بمقاتل وليكلأك المعين برحمتهِ

وفي صباح الغد دعا اوريون نيلُس اليهِ وانفرد بهِ في الخزينة ليطلعهُ على امر سفرهِ ورآها انوبس اخو كاترينا فعلم ان انفرادها لامرٍ جلل فحدثتهُ نفسهُ باستراق السمع عملاً باشارة كاترينا فصعد على السطح واكبَّ على فتحة فيهِ فلما سمع ما شاء سماعهُ من الحديث اسرع لينزل واذ خشي ان يراهُ احد الكتبة ابتعد عن السلم وامسك باحد الميازيب يريد النزول عليهِ

فانكسر الميزاب وسقط الى الحضيض فترضضت عظامهُ فصاح صيحة دوت لها جوانب المكان فهرع اليهِ الاعوان والخدم فرفعوهُ من مكانهِ . اما نيلس فلما وقف على غرض سيدهِ طار رشدهُ فاخذ يتوسل اليهِ ويستحلفهُ ان لا يغرّر بنفسهِ وافاض في وصف المخاطر التي تعترضهُ فاقتنع اوريون بصحة ارائهِ لكنهُ لم يحد عن عزمهِ وقال لقد وعدت روفينس ولا اطيق ان ارى هذا الشيخ يسير الى الموت وحدهُ

فقال نيلس ولكنَّ في منف يونانيًّا آخر وهو ملامبوس صانع السفن ولهُ ابنان كلاهما باسل شجاع وهذا الرجل غيور على دينهِ وابناءه ملتهِ ولا اراهُ يأبى اسعاف روفينس فاذا فعل وساعدهُ ابناهُ افادا روفينس اكثر منك

— اذًا سأطلب معونتهما لكني لا اخلف وعدي . ثم ركب ونيلس قاربًا وسارا الى ملامبوس فاطلعاهُ على امر الفرار وطلبا اليهِ ان يسعفهما فاجابهما الى ذلك بطيبة خاطر ودعا ابنيهِ فاخبرهما الخبر ثم ذهب اوريون الى بيت روفينس وسأل عن باولين فقيل لهُ انها ذهبت الى الدير لتخبر الرئيسة بما تمّ من امر المعدّات حتى تكون الراهبات على اهبة السفر فجلس ينتظر عودها فابطأت حتى عيل صبرهُ وحسب انها لا تعود وفيما هو كذلك جاءتهُ هيلانة فاخبرتهُ ان باولين رجعت من الدير ففرح بعودها وبقي في مكانهِ حاسبًا انها تأتي اليهِ وانقضى نصف ساعة دون ان تجيء فاخذ الغيظ منهُ كل مأخذ وشق عليهِ ان لا تحفل بهِ الى هذا الحدّ وحينئذٍ أتت هيلانة فقالت باولين تدعوك اليها في البستان

ولما ذهبت باولين الى الدير اطلعت الرئيسة على ما تلقتهُ من الاخبار فلما اعلن ذلك للراهبات ذعرن واخذت كل واحدة منهنَّ تأتي بذخائرها حتى ضاقت الغرفة بها فامرتهنَّ الرئيسة باعادتها جميعًا وقالت ان السفينة لا تسع هذه الامتعة فهي تزيد في ثقلها وتعيق سيرها ثم عدّدت لهنَّ ما يستطعنَ اخذهُ فتفرقن في غرفهنَّ وحينئذٍ دخلت الرئيسة بباولين لتلقي عليها شيئًا من النصائح قبل فراقها فاندفعت هذه تحدثها بحديث حبها وتطنب في وصف حبيبها الى آخر ما يقولهُ المحبون اذا اتسع لهم مجال الكلام فلما فرغت سألتها الرئيسة قائلة

— ألا يدفعكِ هذا الحبّ الى ترك العالم بامرهِ واتباع من تهوين فاشارت باولين بالايجاب

— اذًا فتحذيري اياكِ ميذهب سدًى لكنَّ حبيبكِ ليس من ابناء مذهبنا

— على انهُ يحترمهُ بدلك على ذلك مجازفتهُ بحياتهِ لا نقاذكنَّ

— انما يفعل ذلك ارضاء لحبيبتهِ وان زواج ابنة توما يعقوبي يسوءني وانا عالمة انكِ لا تبذينهُ ولكنَّ الله يتخذ الحبّ الصادق وسيلة لاتمام مشيئتهِ على طرق شتى قد تبدو لعين الناظر

مملوءة بالمعاثر. فسرَّت باولين لهذا الكلام وكادت تقع على عنق الرئيسة وتقبلها امَّا هذه فلم تمهلها ريثما تفرح بما سمعتهُ فقالت

— ولكن حبيبكِ يشتهي ان يتمتع بنعمة الله وهو متدفع بكليتهِ الى ملذات هذا العالم فلا تزال طبيعتهُ كما كانت ولا يزال يرى في غرور هذه الدنيا منتهى السعادة فالحبّ الزمني يدفعهُ الى طلب الاغراض النبيلة لكنهُ غير مأمون العثار فاذا سقط لم يستطع النهوض لأن حبّ الله ليس في قلبهِ فاذا رأيتِ ان تصغي الى صوت حبكِ فتقبليهِ زوجاً لكِ فتملي زماناً ريثما يبرهن لكِ عن صدق طويتهِ وحسن توبتهِ

— لكنهُ تاب منذ زمن

— وما دليلك على ان توبتهُ خالصة فهو لا يزال يبتغي السعادة الزمنية ولما كنت اعتبركِ ابنة لي فانا انصحك كما تنصح الام ابنتها فتجلدي وثابري على مراقبتهِ ولا تسلمي لهُ بمقدار ذرة حتى

— حتى متى . اهذا هو الحب الصحيح فقد عهدت الحبّ يقضي على المرء بمقاسمة حبيبهِ افراح الحياة واتراحها

— صحيح ولكن الصبر من واجبات المحبين ايضاً فتذرعي بهِ ولا ترتبطي برباط الزواج الذي لا يفكُّ حتى ترى اوريون كما ينبغي ان يكون وساعديهِ على نهج السبيل القويم دون ان تسرعي في قبولهِ . فامحمت باولين ولم تحر جواباً وظلَّت الرئيسة تخاطبها حتى وعدتها بانها لا تبتُّ امراً الى ان يعود اوريون من دمياط ويدهِ كتاب منها تضمنهُ ما ترتاديهِ بشأنهِ وكانت تتكلم والدموع تهطل على خديها لان قلبها ابى التسليم بما لم يستطع عقلها دفعهُ فلما عادت الى البيت وقابلت اوريون كما تقدم قالت

— عفواً ولا يغظك ابطائي عنك فقد اصابني الم شديد في رأسي بعد ان فارقت من كانت لي بمثابة امي

— ايتِ لقائي امس وسمعتِ روفينس اليوم يدعوني الى الفطور ولست اريد خطابك بلفظ الآمر فهذا ابعد الامور عن قلبي واعلم انكِ لا تطيقينهُ ولكننا سنفترق يا باولين عن قريب فلماذا اضعتِ الوقت الثمين فاختصصتِ صديقتك بساعتين ولم تبقي لحبيبك شيئاً

— اما امس فلم استطع ان ادفع ماري عني وقد كانت تبكي وتقصُّ عليَّ حديثها بقلب مفعم سروراً وعينين دامعتين لئلاَّ تحسب ذلك قساوة مني فلما نزلت ورأيت رقعتك بدلاً منك حزنت جدًّا وندمت على ابطائي

— اضطررت الى الذهاب الى الفسطاط لالقى عمرًا ولا يخفى عليكِ انني اصبحت مقيدًا

بواجبات كثيرة ولم يعد قيادي في يدي فقد قضيت ساعة الفطور كمن يتقلب على شوك امَّا وقد حان وقت الفراق فهنالك امر احب ان وقوف عليهِ واود لو تخبريني ما . . . فقاطعت ما اذا كنت احبك نعم وساحبك الى الابد تعال معي نجلس في ظل تلك الجميزة فهناك مقعد من الخشب. فشخص اليها واعتراهُ الذهول لكنهُ لم يرَ بدًّا من الانقياد اليها فتبعها حتى اذا ما جلسا قال

— أهذا جوابكِ لصوت الحبّ المنبعث من اعماق فؤادي أكذا تعامل الخطيبة خطيبها ليلة يفترقان . فبدا الاضطراب والجزع في وجهها وقالت

— الم اعرب لك عن حبي او خفي على عينيك فاعلم ان قلبي لك وانت مقيم فيهِ فلا يهمني سواك ولا احيا الاَّ لك ولن احب غيرك ولا اصلي الاَّ لاجلك ولكني لست خطيبتك بعد ولا استطيع ان اكون كذلك اليوم

— وعلامَ لا تستطيعينهُ اذا صحَّ انك تحبينني حقًّا وما الذي يدفعك الى تعذيبي

— الفطنة والحذر يقضيان بذلك فلم يحن الزمان بعد ويلوح لي انك لا تستطيع ان تضع ثقتك لعواطفك فقد نسيت الماضي وغابت عنك ذكرى تلك المودَّة العميقة التي كانت تفصلنا فالعناية حوَّلت البغضاء التي كانت تجيش في صدري الى محبة اشد منها لكني لا استطيع ان اكون خطيبتك بعدُ . ان هذا القول يكلفني عناءً شديدًا ويكلفني حزنًا ودموعًا غزيرة على انني اعرف شيئًا واحدًا واردد قولاً واحدًا وهو ان قلبي لك وحدك ولن اصير عروسك حتى استطيع ان اقول لك بملء الثقة لقد فزت فخذني وحينئذٍ يتضح لك ان حبي لك لا يقل عن حبك لي وارباهُ تفهَّم ما اقول يا اوريون ان وجع رأسي يكاد يقتلني . قالت ذلك والقت رأسها على كفها وتنهدت من كبد حرَّى . فاجاب اوريون وقد خنقهُ الغيظ

— ان كلامك هذا لم يصدر عن قلبك ولكنهُ تلقين من تلك الراهبة

— انهُ صوت العقل وكانت عواطفي قد تغلبت على عقلي فانارت صديقتي بصيرتي

— لعن التي نصحتكِ هذه النصيحة فهي لا تعرفني ولم تسمع كلمة من فمي ولو علمت تلك الزاهدة بما في فؤادي لقالت غير ما قالت ومهما يكن من ذنوبي وشري فانا رجل لا انسى اللطف والمعروف ولو اقترنت بكِ يا باولين لتم لي ما اتمناهُ وسرت في السبيل الذي اقتدتني اليهِ فبلغت اوج المجد والكمال اما الآن فلم يبقَ لي من عمل سوى السعي لاكسب حبك بافعالي فاقدمها على مذبح حبك حتى تدبَّ حرارة ذلك الحب في قلبكِ فما قولكِ في رجل يفعل ذلك امام عيني حبيبتهِ فهذه اهانة لا تطيقها نفسي وتأبى همتي ان اجري على هذه القاعدة فاذا كانت دعواكِ في حبي صحيحة فتنازلي عن مطالبكِ هذه . فقبضتْ باولين على يدهِ وقالت

— انها صحيحة فانا احبك من كل قلبي وقد تكون مصيباً فيا لله ما العمل فامهلني في الجواب ألا ترى اضطرابي وما اقاسيه فنظر الى وجهها الشاحب وجبينها المقطب فاخذته الشفقة وقال

— نعم اراهُ فارجئي الجواب الى هذا المساء واذهبي الآن فاستريحي

— وانت في سفرك قل للرئيسة عين ما قلتهُ لي فهي امرأة فاضلة فاذا سمعت كلامك وعرفت صفاتك قدرتك حق قدرك واحبتك فتحلي من وعدي

— اي وعد

— وعدتها انني لا انزوجك حتى . . . . فقاطعها وقال مغضباً

— حتى يتمّ الامتحان فاذهبي واستريحي الآن فقد عكّرت صديقتك صفاء ساعة كنت احسبها احلى ساعات حياتنا وخير لنا ان نقف عند هذا الحدّ من البحث فلا نتجاوزهُ الى ما لا تحمد عقباهُ فاذهبي ونامي فيخف بعض ما بكِ من الالم فاني ناسٍ ما قلتِ وليتكِ ترين ما في صدري فالوداع الى يوم اللقاء . قال ذلك ودار فمشى في سبيلهِ فصاحت باولين والبكاء يقطع كلامها اذكر حبي لك ياوريون ولا تنسهُ اما هو فلم يسمعها بل اسرع في مشيهِ وخرج من البستان

داء السرطان

واحدثُ الابحاثِ عن اسبابهِ

في مثل هذه الايام من العام الماضي صدرت مجلات الطب الامركانية والانكليزية كلها مشحونةً بالمقالات الطويلة عن الابحاث البكتيريولوجية التي قام بها مَعْمَلُ (او مختبَر) ولاية نيويورك البكتيريولوجي عن يد الدكتور جيلورد والدكتور پارك الجراح الامركاني المشهور اللذين قالا يومئذٍ بوجود حمياتٍ في الاورام السرطانية هي سببُ العلّة على زعمهما . وذاع قولهما هذا في كل اقطار المسكونة حتى ان الشركات التلغرافية عنَيت بنقلهِ الى كل انحاء المعمور لمّا رأتْ من ارتياح الناس الى الاطلاع على سبب السرطان واكتشاف ذلك السبب ضالتهم المنشودة

ولكن الاطباء والعلماء المدققين علموا منذ ذلك الحين ان اكتشافاً هامّاً كهذا يجب ألاّ يحلّ محل الاعتبار والتصديق إلاّ بعد التمحيص والتدقيق . ولذلك وقف العالم الطبي والعلمي فاظرًا بملء الرغبة والتشوّق الى اللجنة التي عينتها جامعة هارڤرد الشهيرة لتبحث عن هذا "الرأي الحلمي" حتى صدر تقرير تلك اللجنة في شهر مايو الماضي واذا بهِ تفنيد للرأي الحلمي بحججٍ دامغةٍ لا تقبل الرد والاعتراض تعود كلها الى ثلاثة براهين